صحراء ذهنية!..

من الأخطاء الشائعة ان التطوّر الآلي، وسيطرة المادة على القوى المبدعة الخلّاقة في المجتمع البشري، يعملان في استمرار لاضعاف خلجات الفكر، وهمسات الروح، في تصابيهما إلى خلق الجمال معبّراً عمّا يجيش في خلاياهما من معانٍ وأحاسيس حيث تنشأ من تفاعلهما هذه المجموعة من الحيوات الزاخرة بالسحر، المفعمة بالرؤى، المضمّخة بأرج الحب، والأمل، والشوق والإيمان، والجمال، وهي ما نسمّيه الفنون!! أي ان الآلة وتاليا المادة، على زعم المتشائمين، تنمو وتسود على حساب الفكر والروح والخيال، على أشلاء الفنون الجميلة، من موسيقى وشعر، ونحت، وتصوير. ويذهب هؤلاء إلى أبعد من ذلك فيقولون ان الأجيال المقبلة سوف تضحك من «سفاسف» هوميروس والمعري ودانته وشكسبير وغوته، ومن «ولولات» شوبرت وبتهوفن، ومن «مضحكات» فاغنر، وليوناردو دو فينشي ورفائيل!! وإضراب هؤلاء العباقرة الخالدين الذين ملأوا الدنيا بأغاريد السماء، وعطّروا الوجود بأنفاس الملكوت، وزيّنوا الكون بنفثات الخلود!!! وأضواء الحياة، وظلال الالهام!!

لا نكير في ان طغيان المادة يؤول إلى اغراق المعاني الروحية، وغمر ما يُمكن أن نسمّيه «الاختلاجات الفنية». ولكن هذا ليس معناه القضاء على تلك المعاني وهاته الاختلاجات، ولا رجوع الإنسان القهقرى في مضمار الثقافة، وميدان الفكر، وآفاق الفنون والآداب!! وإلا فللحياة بالذات مفعول رجعي تنعدم فيه مقاييس الرقي، وتنتفي قواعد النشوء!

وعلى هذا، ان المادة، على الرغم من انها تستهدف، ظاهراً، شلّ مفعول الروح والحؤول دون بروز انعكاسات الفكر، مجسّدة في المتعارف عليه من فنون، إلا انها، واقعاً، تزيد في قيم ذلك المفعول وهذه الانعكاسات، وتجعل التشوّق إليها أشدّ، وأفحم، وأغرز لهفة، وأبعد مدى في الانطلاق، عملاً بمبدأ التوازن الذي تنهض عليه أسس المجتمعات الإنسانية الناضجة التفكير، العميقة أغوار الميول النفسانية، الرامية أبداً إلى المتعة، المتصابية سرمداً إلى تلطيف أجواء الحياة بموحيات الفكر، ونتاج الروح، أو بعبارة أوضح بغمغمة من شعور في شعر. ونغمة من حبٍّ لي لحن، ووميضة من رهيف إحساس في لوحة واسعة من تفاعل قلبٍ وضمير في صورة أو رسم!! وانه لظمأ إلى الإيمان بالجمال، وتالياً بالله!

أعود من ثلاثة مؤتمرات دولية على مستوى زعماء العالم وممثليهم عقدت في امستردام فنيويورك فكوريا الجنوبية. وقد شاركتُ فيها كسفير للسلام. فإذا بي أمام عوالم من الإحساس والشعور، ومن الرؤى والأحلام، وفردوس داني القطوف من المعاني البكر. والالتفاتات العذراء. ولعل مرد تأثير هذه المؤتمرات، المعقودة حول السلام في العالم، في نفسي، هذا التأثير العميق، المتململ من عدم حضورنا الرسمي!، المنساب في حنايا النفس، وثنايا الوجدان، انسياب حميّا الخمر، لعل مردّه إلى هذا القحط الذهني الذي أعيش فيه في مجتمعاتنا، وإلى ذاك الغمار المادي الذي يفرضه عليّ وعلى أمثالي هذا الاغتراب عن الوطن والمحيط، ويفرضه هذا الخوف من وخزات العوز، وهذا التجهّم المغلق الذي يطالعنا به وجه «قضاء وقدر».

هل ترانا ننعتق أخيراً من تصحّرنا الذهني أولاً؟

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه